

الرق في الغرب الإسلامي من خلال كتب النوازل: الكشف والبيان

لأصناف مجلوب السودان لأحمد بابا التنبكتي أنموذجاً

Slavery in the Islamic West through the books of el nawazils:
Al-Kashf wa al-Bayan li-Asnaf Majlub al-Sudan by Ahmad
Baba of Timbukou as model

مريم سكاكو

جامعة الدكتور مولاي الطاهر-سعيدة meriem.sekkakou@univ-saida.dz

تاريخ الإرسال: 2025/01/23 تاريخ القبول: 2025/05/31 تاريخ النشر: 2025/06/30

الملخص:

توسعت الدراسات التاريخية واكتسبت روافد جديدة لاستقاء المعلومات وتفاصيل أحداث بقيت محل غموض ، و حياة دول جهلت فصول من تواريخها ، ويتمثل هذا المنهل في كتب الفتاوى والنوازل التي أضحت معينا لا غنى للباحث في التاريخ عنه ، فقد كشفت لا عن النازلة وما أحاط بها من مراسلات ومساءلات وأجوبة فحسب ؛ وإنما أمدت بتفاصيل وافية عن زمن حدوثها في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وفي هذا السياق عرفت منطقة الغرب الإسلامي ظاهرة الرق وكثرت المساءلات التي تبادلها العلماء فيما بينهم حول موقف الفقه المالكي من الرقيق المجلوب من بلاد السودان خاصة أمام ما وقع من تجاوزات منافية للشرع ، ومن تلك الرسائل رسالة **الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان لأحمد بابا التنبكتي** والمعروفة أيضا باسم: **معراج الصعود أجوبة احمد بابا حول الاسترقاق** ، ولم يكتف بالتأكيد أو التذكير باجتهاد مالكية الغرب الإسلامي بل عزز اجتهاده في فتواه بمعلومات دقيقة عن بلاد السودان وسكانها وظروف انتشار الإسلام فيها.

الكلمات المفتاحية: الرق ؛ الإسلام ؛ النوازل ؛ السودان الغربي ؛ معراج الصعود.

Summary :

Historical studies expanded and gained new sources to extract information and details of events that remained mysterious, and the lives of countries whose histories were unknown. This source is represented in the books of fatwas and el nawazils which have become an indispensable resource for the researcher of history. It revealed not only the controversial issues and the correspondence, inquiries, and answers surrounding it, but also provided ample details about the time of its occurrence in various political, social, economic, and intellectual aspects. In this context, the Islamic West

witnessed the phenomenon of slavery, and scholars exchanged many questions among themselves about the position of Maliki jurisprudence regarding slaves brought from Sudan, especially in light of the transgressions that occurred that were contrary to Sharia law. Among those letters is the “Message of Revealing and Explanation of the Types of Sudanese Exports.” by Ahmed Baba Al-Tanbukti Or “Miraj of Ascension” Ahmed Baba’s answers about slavery, he did not stop at confirming or reminding the ijtiḥad of the Maliki scholars in the Islamic West, but rather he strengthened his ijtiḥad in his fatwa with accurate information about the country of Sudan, its inhabitants, and the circumstances of the spread of Islam there.

Keywords: Slavery; Islam, El nawazils, Western Sudan, Boarding Ascension

مقدمة:

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى التعريف بوحدة من أشهر الفتاوى الفقهية التي ذاع صيتها في الغرب الإسلامي في نهاية العصر الوسيط ، والتي كشفت لا عن النازلة وما أحاط بها من مراسلات ومساءلات وأجوبة فحسب وإنما أمدت بتفاصيل وافية عن زمن حدوثها في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

وفي هذا السياق عرفت منطقة الغرب الإسلامي ظاهرة الرق وكثرت المساءلات التي تبادلها العلماء فيما بينهم حول موقف الفقه المالكي من الرقيق المجلوب من بلاد السودان خاصة أمام ما كان من تجاوزات منافية للشرع ، ومن تلك الرسائل رسالة الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان لأحمد بابا التنبكتي والمعروفة أيضا بـ **معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق** ، إذ لم يكتف بالتأكيد أو التذكير باجتهاد مالكية الغرب الإسلامي بل عزز اجتهاده في فتواه بمعلومات دقيقة عن بلاد السودان وسكانها وظروف انتشار الإسلام فيها.

وتعتبر رسالته هذه وثيقة تاريخية بمضمون اجتماعي عكست جانبا من وضع الرقيق الذي يجلبه التجار من البلدان الإفريقية لبيع في سوق النخاسة ووجه تملكه من الناحية الشرعية .

1- أهمية كتب النوازل في الكتابة التاريخية:

من أبرز الخصائص التي تميز النوازل الفقهية عموما الواقعية لارتباطها بقضايا وقعت ونزلت بالفعل وترتبط نوازل المالكية بصفة خاصة بهذه الواقعية أشد ارتباطا منذ عهد

الإمام مالك ؛ حيث كان يستنكف عن الخوض في الفرضيات ويحرص ألا يبحث إلا في فقه المسائل التي وقعت بالفعل ، ولما كانت النوازل ترتبط بحياة الناس المتغيرة باستمرار حيث لا تكاد تطابق نازلة الآخر ؛ فتتغير الفتاوى وتؤول النصوص حسب ظروف النازلة وملابساتها بما يراه المفتي ملائما لمقتضى الحال دون مصادمة القواعد الشرعية الأساسية¹.

وتختلف كتب النوازل شكلا ومضمونا فهي قد تحتوي على فتاوى مؤلفيها بالأساس وقد تضاف إليها فتاوى لشيوخ المؤلف أو أقرانه الذين أجابوا عن أسئلته ومناقشاته في مسائل معينة ، ومن أهم الخصائص المميزة للنوازل أيضا نجد الطابع المحلي فتتحدد مسألها في الزمان والمكان والموضوع حسب الأسئلة التي تنبني عليها وما تطرحه من مشاكل دينية واجتماعية واقتصادية².

فالنوازل تؤرخ لواقع اجتماعي وفكري وثقافي وسياسي ، كما يستفاد منها مستوى التحصيل في المعرفة الدينية ، وبالتالي تكشف النوازل عن العديد من الجوانب منها على سبيل الذكر معرفة درجة استيعاب الفقهاء لحاجات المجتمع المعرفية والاجتماعية والاقتصادية فضلا عن تحديد استحقاقات اللحظة التاريخية من الناحية المنهجية والحضارية ، والاستجابة تعني معرفة الأزمات المؤثرة في حياة المجتمع والأسرة والفرد بصفة مباشرة أو غير مباشرة وفي كل ذلك عناية بالتاريخ الثقافي والاجتماعي والاقتصادي³. وفي هذا السياق ساعدت كتب النوازل في كشف النقاب عن تاريخ فئات اجتماعية اختلفت من حيث وضعيتها بين فئات عليا وأخرى دنيا ، وكان الرقيق من الفئات التي قامت بدور مهم في مجتمع بلاد المغرب وكانت أسواق النخاسة وتجارة الرقيق رائجة في الغرب الإسلامي بل ونشطت تجارة الرقيق في مغرب العصر الوسيط وعرفت رواجاً كبيراً وهو ما تؤكد كتب النوازل⁴.

1- محمد حجي، نظرات في النوازل الفقهية، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، 1999م، صص 55-56.

2- المرجع نفسه، صص 58-59.

3- عمار جبدل: "النوازل مصدرا للتاريخ الاجتماعي والثقافي" ضمن أعمال الملتقى الدولي السادس للمذهب المالكي في الغرب الإسلامي، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، دار الثقافة، عين الدفلى، 13-14 جمادى الأولى/28-29 أبريل 2010م، صص 285، 288.

44- كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1996م، ص36؛ ابتسام الزاهر: "الأدب النوازلي مصدرا لتاريخ الإماماء نماذج من

وبالرجوع إلى كتاب المعيار نجد عدة أسئلة حول قضايا الرقيق بين من يستفتي في جواز وضع خلخال من حديد في رجل المملوك ليعرف أنه آبق، وبين من له أمة مغنية في الأعراس والأفراح هل يجوز الانتفاع وأخذ ما تعطى على ذلك⁵، وبين من يوصي بعق عبد أو أمة⁶.

ومن هنا يمكن أن نستشف الأدوار والمجالات التي سجلت فئة الرقيق حضورها فيها، خاصة ما تعلق بالأعمال الحرفية ومنها عملية التعدين حيث انخرط العبيد في عملية استخراج الخامات المعدنية لما تتطلبه من جهد مضني، لدرجة اعتبر معها العبيد القوة المحركة في العمل الجماعي في المزارع الكبرى والمناجم سيما مناجم الملح في الصحراء خاصة العبيد السودان، وارتباطا بالتعدين وردت إشارات إلى عمل الرقيق ببعض الصناعات المعدنية مثل سك العملة، والصياغة، أعمال الحدادة، إلى جانب نجارة وتزويق الخشب، كما تم توظيف العبيد في أعمال البناء وتعمير المدن والغزل والنسيج وصناعة الثياب والطبخ وأعمال الزراعة والرعي⁷.

ونسجل أن الذكاء والجهد الخاص لفئة من العبيد مكنت عددا منهم أن يصبحوا قادة وموظفين، فعبيد الحكام وكبار رجال الدولة كانوا ينفذون الأحكام ويزاولون بعض المهام الإدارية، وعبيد العلماء والشرفاء الذين تلقوا بعض العلوم وقد تم تنظيم طبقات العبيد⁸ وكثيرا ما تمكن العبيد الذين يخدمون في القصور من شغل مناصب رفيعة في الدولة بعد

المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط "مجلة عصور الجديدة"، تصدر عن مخبر البحث التاريخي تاريخ الجزائر، جامعة وهران، العدد 13، أبريل، 2014م، ص 11.

5- ينظر: الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، تحقيق: محمد حجي وآخرون، ج 5، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1403 هـ / 1983م، ص- ص 146-147، 188.

6- المصدر نفسه، ج 9، ص 290.

7- للمزيد من التفصيل حول مختلف المجالات التي استخدم فيها الرقيق ينظر: عبد الإله بنمليح، الرق في بلاد المغرب والأندلس، ط 1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2004م، ص ص 88-89؛ خالد حسين محمود: "الرقيق والنشاط الحرفي ببلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام" مجلة الإنسان والمجال تصدر عن معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي نور البشير، البيض، العدد 05، أبريل، 2017م، ص ص 71-82.

8- محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الفليج، الكويت، ص 602.

عتقهم⁹، وهنا نسجل أن شعوب بلاد السودان تميزوا بطريقتهم الخاصة في التعامل مع ظاهرة العبودية وذلك حسب تقاليدهم المحلية، فالعبد في السودان الغربي احتفظ بكثير من حقوقه الاجتماعية وهو ما زاد من غموض وضعية الشخص الفاقد لملكية نفسه والذي صنف بين مصطلحي العبودية والرق وكان هذا الموضوع من أكثر ما أربك مؤرخي السودان¹⁰.

2- التطور التاريخي لجلب رقيق السودان إلى الغرب الإسلامي:

لقد كان للرق وضع اجتماعي قائم منذ القدم في تاريخ الأمم والشعوب، وكانت تجارة الرقيق والنخاسة من أهم موارد الثروة وجزءاً من النظام الاقتصادي، وكان الرقيق إما أسرى الحروب الذين يتم استعبادهم أو العبيد الذين يتم شراؤهم بالمال؛ فكان الرقيق موجوداً بكثرة في المجتمع العربي أوائل الإسلام وكان أيضاً من الأنظمة السياسية في حياة الشعوب المعاصرة للإسلام ولم يكن من الحكمة القضاء عليه مرة واحدة لأسباب تملّحها الحياة الاجتماعية والظروف الاقتصادية ولهذا فإن التشريع الإسلامي أوجد المنافذ التشريعية والمسالك القانونية التي ضيقّت روافده وألغت موارده شيئاً فشيئاً وفتح للأرقاء أبواب الحرية ووسع من أسباب العتق ما يكفي للقضاء عليه¹¹.

هذا ونجد أن الغرب الإسلامي على غرار المشرق عرف ظاهرة الرقيق الذي ورث التجارة فيه عن الشعوب القديمة حيث عرف الرق بين البشر منذ أزمنة قديمة فوجد عند المصريين القدماء والصينيين والهنود واليونانيين والرومان وبلاد الرافدين وعرب الجزيرة، ومن أبرز أسباب حدوث هذه الظاهرة نذكر:

-الحروب التي كانت تقع بين مجموعتين من البشر فإذا انتصرت إحداها على الأخرى استرقت نساءها وأطفالها.

9- اسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص308.

10- زوليخة برمضان، المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5 و10هـ/11 و16م، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2015م، ج1، ص306، 315.

11- عبد الخالق أحمدون: "التواصل الحضاري ن المغرب والبلدان الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى من خلال وثيقة فقهية" ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، طرابلس، 1998م، ص503؛ علي كسار غدير الغزالي "الجذور التاريخية لظاهرة الرقيق عند الشعوب القديمة وعرب الجزيرة قبل الإسلام دراسة مقارنة" مجلة دراسات تاريخية، العدد 25، ديسمبر، 2013م، ص101.

-الفقر الذي حمل كثيرا من الناس على بيع أولادهم رقيقا في الأسواق.
-العجز عن تسديد الدين إلى جانب الخطف والقرصنة وغيرها من عوامل الاسترقاق.¹²
وحسب أحد المفكرين فإن المسلمين وضعوا ضوابط حتى يكون الاسترقاق شرعيا ؛
فاشترطوا أن تكون الحرب مشروعة بحيث لا يجوز استرقاق من يؤسر في غارة ظالمة كالتي
تشنها القبائل على بعضا البعض بغيا وعدوانا ، فالاسترقاق ليس قاعدة في معاملة الأسرى
وليس مصيرا حتميا عملا بأحكام السياسة الشرعية وتحقيقا للمصلحة الإسلامية العامة فهو
حالة استثنائية لان الأصل هو الحرية¹³.

وبالنسبة للتاريخ المحدد لبداية اتصال سكان بلاد المغرب ببلاد السودان فهو غير
معروف ، وترجح إحدى الدراسات أن ذلك ربما كان منذ دخول الجمل إلى هذه المناطق ،
وربما كان ذلك في العهد الفينيقي أو القرطاجي كما يبقى تاريخ جلب العبيد من بلاد
السودان إلى بلاد المغرب مجهولا أيضا¹⁴ لكن اتصال المسلمين بالسودان الأوسط بدأ
على يد عقبة بن نافع الفهري الذي قاد كتائب الجيش العربي الإسلامي عبر صحراء ودان
وفزان إلى مدينة زويلة على حدود السودان الأوسط 22هـ/643م وإلى مناطق كوار في
السودان الأوسط ويرى البعض أن عقبة بن نافع وصل إلى شرق مدينة غاو سنة 61هـ/680م
ووادي درعة وتبعه موسى بن نصير في حملة وادي درعة ، وعلى يد حبيب بن أبي عبيدة
الذي وصل إلى مشارف بلاد السودان الغربي واتخذ استيراد العبيد السودان من تلك
المناطق شكلا تجاريا بعدما توقفت الفتوحات وعرفت بلاد المغرب نوعا من
الاستقرار¹⁵، واستمر تدفق الرقيق من المناطق الغربية للسودان خاصة بعد تنظيم تجارة
القوافل عبر الصحراء من ذلك السودان المجندين في الدولة المرابطية عبر التجارة أو
الأسر¹⁶.

12- احمد الحمدي: "تحديد وضعية عبيد توات من خلال الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان
لاحمد بابا التنبكتي"، مجلة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، العدد 23، جويلية 2014م ، ص
432؛ علي كسار، المرجع السابق، ص 78.

13- لطيفة بشاري بن عميرة ، الرق في بلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى رحيل الفاطميين (ق1-
4هـ)/(7-10م)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة
الجزائر، 2007-2008م، ص 68-69.

14- لطيفة بشاري بن عميرة ، المرجع نفسه، ص 216.

15- احمد الحمدي ، المرجع السابق ، ص 433؛ لطيفة بشاري، المرجع السابق ، ص 216.

16- عبد الإله بنمليح ، المرجع السابق ، ص 204.

خلاصة القول هي أنه لا توجد مرحلة تخلو من إشارات إلى دور أولئك العبيد في حياة الدول وفي مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والفكرية وما برز من قضايا تخص حضورهم في المجتمع أطلعنا على بعض ملامحها كتب النوازل والفتاوى والتي لا تزال ميدانا خصبا للبحث والاستكشاف.

3- معراج الصعود مصدرا لتاريخ الرق:

عرف المجتمع المغربي الإسلامي الرق واستند حضوره فيه إلى أسس شرعية ضبطت ممارساته وحركيته في المجتمع سواء كفرد له حقوق وعليه واجبات أو علاقته بالسيّد¹⁷، وقد سطرت القواعد الشرعية التي كانت تحكم ممارسة الاسترقاق في الغرب الإسلامي في عدد من المساءلات التي تبادلها علماء هذه المنطقة فيما بينهم أو مع أولي الأمر ومن بين النصوص المؤسسة في هذا الباب أجوبة أحمد بابا التنبكتي¹⁸ حول الاسترقاق¹⁹.

إن الشرع الإسلامي لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا وحاول أن يلغي هذا النظام ويحول دون انتشاره بشتى الوسائل ، وقد رغب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في تحرير الرقيق ؛ فالموضوع يتعلق بالعبيد المجلوبين من البلاد السودانية التي تقرر إسلام أهلها كبرنو وكانو وجاغو وكاشنه وغيرها من البلدان التي استفاض إسلامهم هل من وجه شرعي يسوغ لملكهم والتصرف فيهم بالبيع والشراء ؟ حتى قيل أن موضوع الرق وتجارة

17- نفسه ، ص 67.

18- هو الفقيه أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر أقيت الصنهاجي الماسيني ولد سنة 963هـ/1556م بقرية أورووان في أسرة أقيت المعروفة بالعلم والصلاح ، والده أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت الفقيه العالم صاحب الخزانة النفيسة ، كان أحمد بابا مجتهدا في خدمة العلم وصف بأنه حسن التصنيف مطبوع على التأليف للمزيد عن شيوخه ومؤلفاته ينظر: أحمد بابا التنبكتي ، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ، تحقيق: محمد مطيع ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 2000م ، ج 2 ، ص 139؛ أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولائي ، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1981م ، ص ص 31-37؛ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق: جعفر الناصري و محمد الناصري ، ج 5 ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1955م ، ج 5 ، ص ص 130-131.

19- فاطمة الحراق وجون هانويك ، مقدمة تحقيق معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط ، 2000م ، ص 13.

الرق في إفريقيا من أشد المواضيع حساسية وأكثرها مدعاة لاختلاف الرأي في التاريخ الإفريقي²⁰.

فالمصادر توضح: "ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الإسلام، وإنهم من أحسن الأمم إسلاما وأقومهم ديناً وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة"²¹ وأن هذا "يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى ببلاد المغرب من لدن قديم من استرقاق أهل السودان مطلقاً وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة وبيعهم في أسواق المغرب حاضرة وبادية يسمسون بها كما تسمس الدواب بل أفحش"²² فما يستشف من هذه الرواية المنقولة هو نظرة الازدراء التي لحقت أهل السودان رغم إسلامهم وهذا ما أثار حفيظة علماء العصر لاستصدار فتاوى تحرم هذه الأفعال، وما تجدر الإشارة إليه أن موضوع استباحة استرقاق المسلمين بعضهم بعضاً لم تكن وليدة هذه المرحلة أو لحقت السودان فقط وإنما نسجل تعرض النساء والأطفال للسخي خلال ثورات ضد الحكم الأغليي مثلاً وتصدي الإمام سحنون لذلك²³.

فالمفروض أن يتصف شخص في السودان بالعبودية عندما يؤسر ضمن بلاد الوثنيين أو عندما تقوم علاقة إنتاج بين مالك الأرض والعاملين فيها ثم تتحول إلى علاقة ارتباط دائم بتلك الأرض عن طريق خدمتها وخدمة مالكيها²⁴.

وقد اختلف الكتاب القدامى والمحدثون في تصنيف عبيد السودان باختلاف المعايير المتخذة في هذا التصنيف فاحمد بابا التنبكتي ميز بين ثلاثة أشكال من العبودية وهي: عبيد بالأسر، وعبيد بالخلقة، وعبيد بالوثنية، بينما تميز الروايات المحلية بين نوعين أساسيين: عبيد بالمتاجرة، ويشمل هذا النوع سجناء الحروب الذين سقطوا كأسرى أثناء الغارات ويعتبر السيد حراً في تصرفه تجاه هؤلاء الأسرى الذين أصبحوا ملكاً له، أما النوع الثاني فهو ما يعرف بعبيد البيوتات وهم في الأصل عبيد قدامى استطاعوا أن يشكلوا قبائل من أسر عديدة ولا يمكن أن يتاجر فيهم أو يتنازل عنهم، وهي المجموعة التي

20- علي كسار، المرجع السابق، ص101؛ عبد الخالق أحمدون، المرجع السابق، ص503.

21- أبو العباس احمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ج5، ص131.

22- المرجع نفسه، ج5، ص131.

23- لطيفة بشاري، المرجع السابق، ص-177-178.

24- محمد الغري، المرجع السابق، ص 602.

شكلت موضع جدل بين العلماء وملوك الصنغاي من جهة ، وبين التجار المغاربة والفقهاء السودانيين من جهة أخرى²⁵.

وفي ذات السياق يسجل أن فئة العبيد في السودان الغربي تمتعت بوضعية اجتماعية وقانونية مهمة وشكلت الشق الأكبر من المجتمع والعنصر المحرك لاقتصاديات البلاد ولها حقيقته من مكانة لدى الحكام والفقهاء وهو ما يظهر من تصنيفهم إلى عبيد القصر وعبيد الخواص:

عبيد القصر: سجل البكري منذ القرن الخامس الهجري/11م وجود العبيد (الغلمان) في قصور ومجالس ملوك غانة وعند وفاة الملك يدفن هؤلاء الخدم أحياء إلى جانب رفاقته، وعد عبيد القصر في بلاط منسى مالي بالألوف ، وعرف عبيد القصر في إمبراطورية الصنغاي ب(بيت المال) وقام الخصي والعبيد على حراسة نساء الملك وجواريه، وفي عهدي سني علي والأسكيا محمد الأول سجل سقوط بعض العشائر المسلمة في العبودية كنتيجة لحروبهما التوسعية²⁶.

عبيد الخواص: اختلفت أعدادهم من أسرة إلى أخرى باختلاف ثروات الأسياد ومراتبهم الاجتماعية ، وامتلك الأمراء والعلماء والتجار أعدادا كبيرة منهم في القرى والمدن وحتى في دور عامة الناس ، ويتم الحصول عليهم عن طريق الشراء أو كهدايا أو كأسرى غارة وقد اعتبرت ملكية العبيد سمة من سمات الثراء في المدن الكبرى²⁷.

فموضوع انتشار الإسلام في البلدان الإفريقية ينبغي أن يحتل مكانا رئيسيا في التاريخ الإفريقي وتاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث لأسباب عديدة منها ارتباط العالم العربي بالقارة الإفريقية منذ عصور مختلفة من التاريخ وامتزاج الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات المتعددة للشعوب الإفريقية مما جعل العالم العربي والإفريقي أقرب إلى التضامن والتوحد والتداخل الحضاري تحت راية الإسلام²⁸.

والرسالة التي بين أيدينا تصنف ضمن مصادر النوازل أو المسائل أو الأجوبة ، وهي تعكس جانبا من الواقع الحياتي الذي تداخلت فيه عوامل مختلفة دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية وتكشف عن الحكم الشرعي للقضايا والنوازل التي تتصل بحياة

25- زوليخة بنرمضان ، المرجع السابق ، ج1 ، ص307.

26- المرجع نفسه ، ص-ص 307-312.

27- زوليخة بنرمضان ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 313

28- عبد الخالق أحمدون ، المرجع السابق ، ص518.

الناس، وتضمنت الإجابة عن مسألة وضع الرقيق الذي يجلبه التجار من البلدان الإفريقية لبيع في أسواق النخاسة ووجه تملكه من الناحية الشرعية²⁹.

وقد أشار إلى هذا المخطوط مجموعة من الباحثين على غرار عبد العزيز بن عبد الله: حكم بيع العبيد المجلوبين من السودان، والدكتور أحمد الحمدي في مقاله: تحديد وضعية عبيد توات من خلال الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان ويشير أن النسخة الأم موجودة بتمنطيط بخزانة بكاروي بمنطقة توات وأن التحقيق الذي قام به كل من فاطمة الحراق وجون هانويك والذي نشر بعنوان **معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق**؛ قد وردت به أخطاء كبيرة³⁰.

ونجد ذكر هذه الرسالة ضمن مؤلفات أحمد بابا التنبكتي بعنوان: **الكشف والبيان في حكم أصناف مجلوب السودان**³¹ في كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، و**معراج الصعود** عند صاحب الاستقصا³².

تتمثل أهمية معراج الصعود في كونها نصا مؤسسا في الفقه المالكي وفي نفس الوقت مصدرا أساسيا من مصادر تاريخ بلاد السودان في العصر الحديث حيث قدم الشيخ أحمد بابا الضوابط الشرعية التي تحكم الاسترقاق عند المالكية في الغرب الإسلامي في جوابه على سؤال الشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري³³، وفي نفس الوقت قدم معلومات مفصلة عن بلاد السودان وتاريخ انتشار الإسلام بها وهو ما جعل هذا النص مرجعيا عند الفقهاء والمؤرخين وأولي الأمر في شمال وغرب إفريقيا³⁴.

ويمكن تلخيص المواضيع التي تناولها أحمد بابا في أجوبته في:

- موقف الفقه المالكي من الرقيق المجلوب من البلاد السودانية المعروفة بإسلامها.

29- نفسه، ص 493.

30- أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص 445 الإحالة رقم 1.

31- البرتلي الولاتي، المصدر السابق، ص 36.

32- الناصري، المرجع السابق، ج 5، ص 133.

33- هو الشيخ سعيد بن إبراهيم بن عبد الرحمن قدورة الجزائري تولى الإفتاء بالجامع الكبير بالعاصمة منذ 1028م إلى غاية وفاته 1066م، ارتحل إلى تلمسان لطلب العلم عن سعيد المقرئ فأخذ عنه الحديث والمنطق والبيان بالجامع الكبير بتلمسان، سافر إلى تافيلالت وفجيج وسجلماة ولقي علماء هذه النواحي ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج 1، ص ص 357-360.

34- فاطمة الحراق وجون هانويك، المرجع السابق، ص 14.

- حكم الشرع من الرقيق المجهول الهوية.
- السيرة النبوية وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم في تعاملهم مع الرقيق المجلوب من الحبشة.
- تفنيد أسطورة دعاء نوح على ابنه حام وعقبه.
- الضوابط الأخلاقية للاسترقاق عند المسلمين.
- استرقاق العرب.
- وضعية المولدين³⁵.
- وبالنسبة للقضية المحورية لدراستنا هذه فقد قرر احمد بابا في رسالته الحكم الشرعي في امتلاك الرقيق السودان فرأى أنهم مسلمون أحرار لا يجوز استرقاقهم وهذا ما يتضح في الضوابط الشرعية التي تحكم الاسترقاق عند المالكية:
- لا يجوز تملك المسلم أو الرقيق المجلوب من البلاد المعروفة بالإسلام.
- لا يسترق الذمي أو المعاهد.
- المذهب المالكي يضع المجوس وكل من لا كتاب لهم بمنزلة أهل الكتاب بحيث أنه لما تفتح ارض للإسلام عن طريق الجهاد المشروع يخير أهل الكتاب والمجوس بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزية.
- سبب الرق الكفر ولا فرق في ذلك بين الكافر من العرب أو العجم ، بين الأبيض والأسود أو غيرهم من الأجناس والشعوب.
- طرؤ الإسلام بعد حصول الرق لا يمنع التملك.
- يسترق الكفار من العرب إلا قريشا.
- إذا جهلت هوية الرقيق فمن الورع عدم تملكه وترك سبيله دون تكليفه بإثبات حريته.
- إذا ادعى أحد الرقيق الحرية فقلوه مقبول وعلى المشتري إثبات عكس ذلك ، وبهذا حكم قضاة المالكية في الأندلس والمغرب وبلاد السودان.
- الأصل في الإنسان الحرية والرق حالة طارئة عليه وامتحان له لذلك أوصى الإسلام بمعاملة المماليك معاملة إنسانية وجعل الاجتهاد في تحريرهم من باب العبادة³⁶.
- إن رسالة الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان لأحمد بابا التنبكتي لنموذج واضح على سماحة الإسلام ومبادئه الإنسانية التي طالما حرصت على ضمان حرية الفرد فكيف بنا بفئة أسلمت وحسن إسلامها وبرز منها علماء أجلاء خدموا هذا الدين درسا

35- فاطمة الحراق وجون هانويك ،المرجع السابق ،ص21.

36- فاطمة الحراق وجون هانويك ،المرجع السابق ،ص22.

وتأليفاً، لكن القيمة العلمية لهذه الفتوى لا تقف عند مضمونها الفقهي وإنما نجد أنها قدمت إحاطة بمختلف الأوضاع السائدة بالمنطقة .

الخاتمة:

من حصاد الفقرات السابقة نخلص إلى القول أن قضية الرقيق كانت من أهم القضايا في تاريخ منطقة السودان الغربي، وما رسالة أحمد بابا التنبكتي إلا عينة من جهود فقهاء المالكية لتوضيح وضعية هذه الفئة في مجتمع المغرب الإسلامي عموماً، ورغم الأدوار التي قاموا بها في مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية وإسهامهم في الحياة الاجتماعية والفكرية إلا أن نظرة الأزدراء بقيت ملازمة لهم خاصة إذا تعلق الأمر بالرقيق الأسود يستثنى من ذلك عدد ممن وصلوا إلى مناصب رفيعة ونالوا الحظوة والسلطان فقد كانوا محل تقدير وسعي لكسب الود والقرب منهم ، لكن الملفت في هذه النازلة هو أن الأمر يتعلق باسترقاق شعوب مسلمة استفاض إسلامها على حد قول صاحب السؤال الشيخ سعيد بن إبراهيم الجزائري الذي يعتبر من أبرز الفقهاء في القرن الحادي عشر الميلادي بمنطقة توات الذين لم يدخروا جهداً في الذود عن حرمان الإسلام ومبادئه ، وهذا ما يجعلنا نطمئن إلى القول بخصوصية ظاهرة العبودية والاسترقاق في بلاد السودان وذلك راجع لعدة خصوصيات ميزتها عن غيرها عبر مختلف المراحل التاريخية.

قائمة المصادر والمراجع:

- عبد الخالق أحمدون: "التواصل الحضاري ن المغرب والبلدان الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى من خلال وثيقة فقهية" ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، طرابلس، 1998م.
- البرتلي الولائي أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق ،فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي ،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.
- بنمليح عبد الإله ، الرق في بلاد المغرب والأندلس ، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2004م.
- رمضان زولبيخة ، المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 10 و11هـ/16 و17م ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 2015م ، ج1.
- بشاري بن عميرة لطيفة ، الرق في بلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى رحيل الفاطميين (ق1-4هـ/7-10م)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2007-2008م.
- التنبكتي أحمد بابا ، معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، تحقيق: فاطمة الحراق وجون هانويك ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2000م.
- التنبكتي أحمد بابا ، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ، تحقيق: محمد مطيع ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 2000م
- حجي محمد ، نظرات في النوازل الفقهية، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، 1999.

- الحمدي احمد: "تحديد وضعية عبيد توات من خلال الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان ل احمد بابا التنبكتي"، مجلة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، العدد 23، جويلية 2014م، ص ص 167—185.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.
- اسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
- عمار جيدل: "النوازل مصدرا للتاريخ الاجتماعي والثقافي" ضمن أعمال الملتقى الدولي السادس للمذهب المالكي في الغرب الإسلامي، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، دار الثقافة، عين الدفلى، 13-14 جمادى الأولى/28-29 أفريل 2010م.
- خالد حسين محمود: "الرقيق والنشاط الحرفي ببلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام" مجلة =الإنسان والمجال تصدر عن معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي نور البشير، البيض، العدد 05، أفريل، 2017م، ص ص 64-106.
- الزاهر ابتسام: "الأدب النوازلي مصدرا لتاريخ الإمامة نماذج من المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط" مجلة عصور الجديدة، تصدر عن مخبر البحث التاريخي تاريخ الجزائر، جامعة وهران، العدد 13، أفريل، 2014م، ص ص 8-24.
- الغزالي علي كسار غدير "الجذور التاريخية لظاهرة الرقيق عند الشعوب القديمة وعرب الجزيرة قبل الإسلام دراسة مقارنة" مجلة دراسات تاريخية، العدد 25، ديسمبر، 2013م، ص ص 75-124.
- أبو مصطفى كمال السيد، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للنشرسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1996م.
- الناصري أبو العباس احمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري و محمد الناصري، ج 5، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م.
- محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الفليج، الكويت، ب.ت.
- الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، تحقيق: محمد حجي وآخرون، ج 5، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1403 هـ/1983م.